

استغلال المجال الجغرافي لمدينة الجزائر في العهد العثماني (1516 - 1830 م)

إعداد الأستاذة: مفتاح سعيدة

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة الجزائر

مدينة اليوم، أو المدينة المعاصرة، ليست بلا جذور، فمعظم مدن اليوم هي مدن الأمس، بالرغم من تغير بعض ملامحها، ولكن لا تزال كثير من معالم الماضي تقف اليوم أثرا وشاهدا محتلة نفس أماكنها القديمة، ومن حولها تنمو المدن المعاصرة.

وكثيرا ما عُرفت المدن القديمة ببناء واحد أو عدة بنايات مميزة (الكنيسة، المسجد، السوق، دار البلدية،....). فالأغورا والأكروبوليس مثالا في المينة الافريقية، حيث لازال هذا الأخير يشرف على أثينا اليوم كما كان في الماضي تماما. والساحات العامة (الفوروم) والمعابد والحمامات الساخنة في المدينة الرومانية ولا يزال الكولوسيوم colisée قائما في روما كواحد من أعظم الإنجازات المعمارية الرومانية، والكنائس والقصور في العهد الباروكي وكان من أوائل مدن الباروك في أوروبا، مدينة فرساي Versailles بقصورها وحدائقها التي حولت فيما بعد إلى متاحف... وهي تقع على بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا جنوب غرب باريس. والمساجد والقصور والقلاع في المدينة العربية الإسلامية مثل قلعة صلاح الدين التي لا تزال تشرف على القاهرة.... وأماكن بورصات صفقات التجارة والعمل والمحافظات ومراكز تسيير الأعمال CBD** في أيامنا، مثل شارع المال في نيويورك الذي يعتبر من أهم شوارع قطاع الثالث الراقي (الخدمات المالية) في العالم Wall Street (أصلا كان يطلق عليه شارع السور) وهي تسمية تعكس الحجم الذي

كانت عليه هذه المدينة الكبرى في القرن السابع عشر حين كان يشغل مكانه سور في ذلك الوقت.

هذه هي السمات العامة البارزة لكل حضارة وسلوك معاصريها ولكل نمط من أنماط الحياة الاجتماعية. إذ أن لكل من عوامل التاريخ والزمن والقوى الحاكمة والمجتمعات القائمة آنذاك أثر بالغ في شخصية المدينة بصفة عامة ومركزها بصفة خاصة، فهم يضعون كل بدوره أثارهم وهذا إما لتحسين النوعية أو لتدهورها ولكن دوما في صالح تغيير الإطار المبني والقائم للمدينة .

ولهذا فإنه من الضروري والأجدر قبل الشروع في أي دراسة تخص مجال العاصمة الجزائر، التطرق ولو بإيجاز إلى معرفة نشأة النواة الأصلية للمدينة، هذه الأخيرة التي كانت تعد من أكبر المدن المغاربية وإحدى أهم حصون وعواصم الإمبراطورية العثمانية. والمقصود من هذه الدراسة هو معرفة:

- كيف كان المجتمع الجزائري ينظم مجاله أثناء الوجود التركي؟
- ما هي التغيرات التي طرأت على التنظيم أجمالي عامة وعلى مركز المدينة خاصة؟

فلقد كان لقدم الأتراك أثر هام في بلورة شخصية مدينة الجزائر، حيث تعتبر الفترة العثمانية في تاريخ مدينة الجزائر ملازمة لازدهار كل من التجارة والملاحة البحرية والعمران. فمن المعروف أن اختيار موقع مدينة الجزائر كان على يد "بولوغين ابن زيري" عند نهاية القرن العاشر ميلادي وأن الازدهار الحقيقي للمدينة لم يبدأ إلا بعد القرن السادس عشر بعدما تم طرد الأسبان على يد الأتراك سنة 1529م هذا التاريخ الذي يعود فيه البناء البحري لأول ليمناء المدينة، إذ حول المرسى الطبيعي لمدينة الجزائر إلى ميناء حقيقي. حيث قام الداوي خير الدين بربط البنيون* بالمدينة بواسطة رصيف وبناء حاجزة " jetée " على طول امتداد الجزيرة من أجل حماية السفن في حالة رداء الطقس.

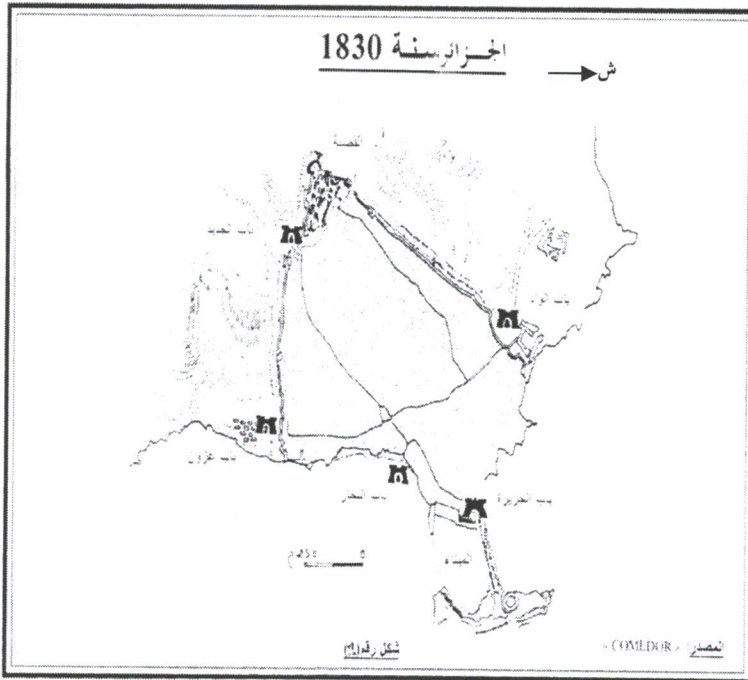
وقد أنجز هذا القسم الأول من ميناء الجزائر - هو عبارة عن منشأة من الكتل الصخرية الطبيعية والتي تشكل جزء من الحاجزة الحالية المعروفة باسم صاحبها،

* الأغورا: تعني "الجمعية" أو مكان الاجتماع كان لها مكان هام في المدن اليونانية ثم حولت

ويحمي حوض مركز القيادة البحرية حماية فعالة من الجهة الشمالية - في غضون ثلاثة سنوات فقط.

هذا فيما يخص الميناء، أما بالنسبة للمدينة فكانت مستقرة على شكلها الهندسي الذي كان عبارة عن مضلع معكوس، أقيم على موضع مساحته 45.100 هكتار، قاعدته على الساحل وقمته تتلاحم مع الربوة التي كان يتربع عليها حصن القصبة، وهذا ما جعلها تحتل موقعا محميا يتلائم مع دورها كعاصمة للإقليم في ذلك الوقت. فكما هو مبين في الشكل رقم (01) كانت المدينة محاطة بسور طوله 3200 متر تخترقه خمسة أبواب هي كالتالي :

الشكل رقم : 01



- باب الحديد من الجهة الجنوبية الشرقية
- باب عزون في الجهة الجنوبية والذي كان يعد من أهم أبواب المدينة
- باب الوادي في الجهة الشمالية ولم تكن له أية أهمية تجارية حيث كان ينتهي بـ الأزقة المقفلة " cul - de - sacs "
- أما على الواجهة البحرية فكانت هناك بوابتان هما:
- باب الجزيرة وباب الحوت .

فكانت المدينة تضم حوالي 30.000 نسمة و 8000 مسكنا يخترقها حوالي 180 شارعا من أهمها وأكبرها: شارع باب عزون وشارع باب الوادي وشارع البحرية. بالإضافة إلى 122 مسجدا منها 13 جامعا و 50 حماما وأكثر من 100 نافورة والعديد من الأسواق كما هو مبين في الشكل رقم 02.

الشكل رقم : 02

الجزائر

سنة 1830

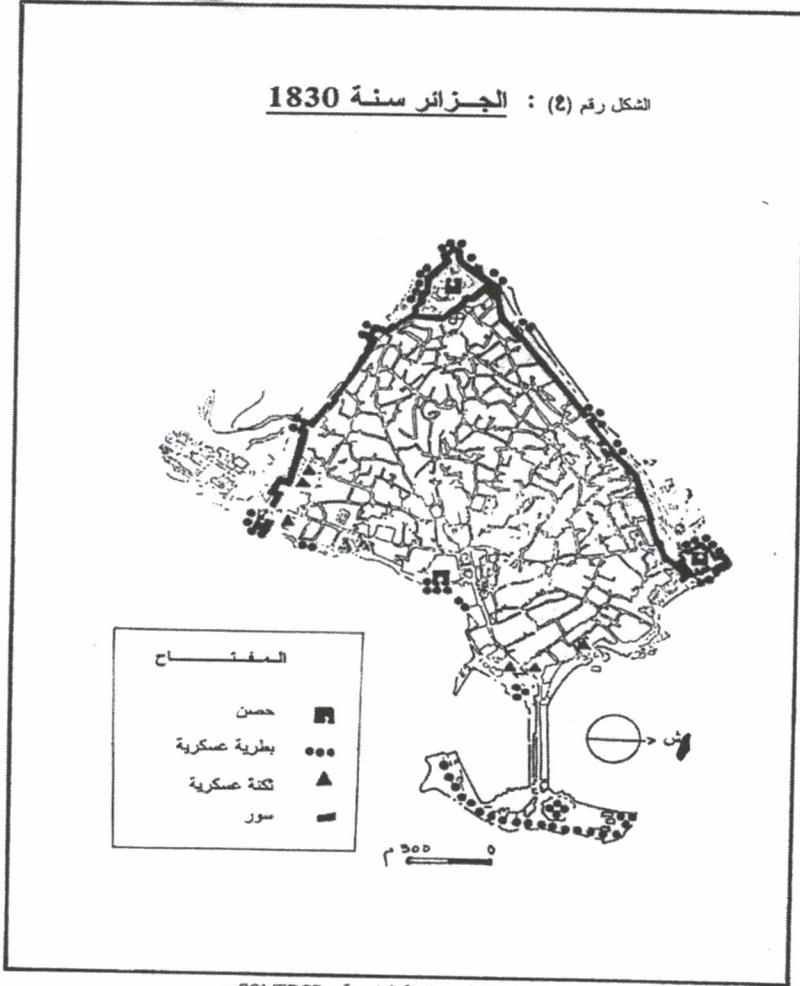


المصدر: « COMEDOR »

أما فيما يخص المنشآت العسكرية، كما يمثلها الشكل رقم 03 فكانت متمثلة في كل من: الثكنات، والتي كان عددها سبعة من أهمها ثكنة "قراطين" و ثكنة "ستة موس" في شارع البحرية و ثكنة "مقرون" ... والأبراج والحصون التي كانت تحيط

بالمدينة من كل الجهات كحصن باب الوادي في الشمال وحصن عزون في الجنوب و برج الداي حسان (برج بوليلة) في الجهة الجنوبية الشرقية على بعد ثلاثة كلم من المدينة، ومنه على بعد واحد كلم كان يوجد برج النجمة. أما تلك التي كانت تحمي المدينة من الواجهة البحرية فكانت متمثلة في ثلاثة أبراج هي: البرج الجديد، و برج الإنجليز، و برج 24 ساعة.

الشكل رقم : 03



— تمثيل المجال الجغرافي لمركز مدينة الجزائر (الإطار الحضري):

ككل المدن العربية كان لمدينة الجزائر مركزا وحيدا متعدد الوظائف، السياسية والعسكرية والدينية والتجارية..الخ. لكن بخلاف المدن العربية المتوسطة والمغربية

كانت مدينة الجزائر تبدو أكثر تركيزا وتنظيما لمجالها الإستراتيجي، وهذا أمر منطقي إذا ما نظرنا في تاريخ هذه المدينة التي كانت دائما في وضعية دفاع لصد الهجمات والحملات العسكرية^(*) المتكررة والمتكاثرة عليها. فكل الوظائف والنشاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية... الخ كانت مجتمعة في نفس المنطقة التي كانت آنذاك في الجهة السفلية للقنطرة، لتعطي طابعا أحادي المركز للمدينة، هذا المركز الذي يظهر بوضوح تام في مخطط المدينة كما يبينه الشكل السابق رقم (02).

أما بالنسبة للضاحية فكانت مخصصة بالدرجة الأولى للسكن ثم تأتي في الدرجة الثانية بعض النشاطات التجارية والحرفية التي كانت مبعثرة هنا وهناك.

فمدينة الجزائر كانت أولا وأخيرا مدينة دفاعية وهذا بدليل كثرة البنايات الدفاعية والعسكرية من قلاع وأبراج وثكنات حيث كانت هذه الأخيرة جزء لا يتجزأ من تنظيم المجال الداخلي للمدينة "المحروسة" كما هو مبين سابقا في الشكل رقم (03).

(*) ملخص للتذكير : رغم المعاهدات التي أبرمت مع الدول الأوروبية كانت هناك محاولات عديدة لاحتلال مدينة الجزائر، لكن هذه الهجمات باءت كلها بالفشل ومن أهمها:

محاولة «Don Juan Gascon» للدخول إلى المدينة سنة 1567 وقنبلة المدينة من طرف الإنجليز سنة 1622 و 1655 و 1672 ومن طرف الدانماركيين سنة 1770 والفرنسيين سنة 1661 و 1665 ومن طرف «Duquesne» سنة 1682 و 1683 والإسبان الذين قاموا بهجوم قوي وعنيف ضد المدينة في سنة 1773 و 1775 و 1783. ثم محاولة اللورد «Exmoth» في سنة 1816 والأميرال «Neal» سنة 1825.

ولهذا كان الحفاظ على النظام المركزي للمدينة وإبقائه متماسك ضرورة إستراتيجية وحتمية دفاعية، ليس فقط للسهر على انتشار ونصرة الإسلام في المنطقة بل للدفاع على المكتسبات الموروثة بصفة أساسية. فوحدة المركز آنذاك لم تكن تعني وحدة المجال فقط بل كان لديها عدة خلفيات من أهمها وحدة الأمة وتماسكها لمواجهة الأخطار المترتبة بالمدينة. فالوضعية الدفاعية للمدينة في تلك المرحلة من التاريخ فرضت الانتحام ألجالي مابين قصر الحاكم والمسجد الجامع "المسجد الكبير" والمركز الشعبي. أي كان المركز بمثابة همزة وصل بين الحكم والدين والشعب.

غير أنه في عهد الداوي "علي خوجة" تغيرت الأوضاع وأصبحت المدينة التي كانت أحادية المركز، ثنائية المركز حيث غادر الداوي "علي خوجة" سنة 1817 م قصر الجنينة الواقع في الجهة السفلى للمدينة ليستقر في قلعة "عروج" الواقعة في أعالي القصبة. فقصر الجنينة لم يكن فقط مقر وإقامة كل الحكام الذين سبقوا الداوي "علي خوجة" بل كان بمثابة المركز القيادي والسياسي الأول للمدينة. وهذا الانتقال من القصر إلى القلعة يعني بالنسبة للتنظيم المحلي للمدينة آنذاك فصل وانسلاخ الجانب القيادي والسياسي عن باقي النشاطات الاقتصادية والاجتماعية... الخ. أي أصبح للمدينة مركزان: القديم يمثل "المركز الشعبي" والجديد "المركز القيادي والسياسي".

وظيفة المركز:

فحسب المخططات المدروسة كان مركز مدينة الجزائر يقع في الجهة السفلى للمدينة على طول الواجهة البحرية، ويتميز بكثرة الطرق المسدودة وضيق الشوارع وتعرجها. فمن أهم ما كان يزرع به هذا المركز: دار السلطان القديمة المتمثلة في قصر الجنينة الذي كان بمثابة المركز القيادي الحاكم، إذ بفضل موقعه الإستراتيجي كان يشرف على مراقبة ومتابعة كل ما كان يجري من أحداث داخل المدينة، حيث كان يقع داخل المثلث الذي كانت تشكله أهم المحاور والمتمثلة في شوارع: باب الوادي وباب عزون وباب الجزيرة أو البحرية.

هذا المثلث لم يكن يمثل المركز السياسي فقط بل كان يأوي أجمل وأهم وأشهر الصروح الدينية كجامع "السيدة" و "الجامع الكبير" - المسجد الجامع الذي يعود تاريخ بنائه إلى القرن العاشر ميلادي إلى عهد المرابطين على يد "إبن تاشفين" -، فكان هذا الصرح والمعلم الديني الركيزة والدعامة الأولى في بناء المدينة وهذا ما جعله بمثابة القيادة الدينية العليا ليس للمدينة فحسب بل لكل البلاد.

والجامع "الجديد" المعروف حالياً بجامع "الساعة" ذو المذهب الحنفي والذي بني سنة 1660 م .

وجامع "علي بتشين" الذي أسس سنة 1623 م والذي يقع عند تقاطع شارعي باب الوادي والقصبة، غير أنه حول في عهد الاحتلال الفرنسي إلى كاتدرائية ثم إلى كنيسة "سيدة الانتصارات" مثله مثل جامع "كتشاوة" الذي أسس سنة 1794 م وحول في عهد الاحتلال إلى كنيسة.

هذا علاوة على العديد من المساجد التي كانت تقع في هذا القسم من المدينة تحديداً، كمسجد "سني مريم" ومسجد "سيدي الرحلي" ومسجد "الشماعين" ومسجد "سيدي عمار التونسي" ومسجد "سبات الحوت".

فعند دخول الاحتلال الفرنسي البلاد، كل هذه المساجد وغيرها لقيت نفس المصير أي التدمير أو التحويل إلى ثكنات أو مخازن أو إسطبلات ولم ينج سوى إثنين الجامع الكبير ذو المذهب المالكي والجامع الجديد الخاص بالمذهب الحنفي.

والملاحظ هنا هو أنه رغم كثرة وتعدد المساجد التي كانت تزخر بها هذه الجهة السفلى بالذات من المدينة، لم يبلغ وظيفة المسجد الجامع "الجامع الكبير" الذي بقي محافظاً على دوره التقليدي المخول له منذ بزوغ فجر الإسلام والمتمثل في المقر الرئيسي والوحيد لإعلان وإصدار القوانين والتشريعات والقرارات التي لم تكن تخص سكان المدينة فحسب بل كانت موجهة لكل الأمة آنذاك.

فخلافًا عن المدن العربية القديمة يظهر المسجد الجامع في مخطط مدينة الجزائر كما هو مبين في الشكل السابق رقم 02 منفصلاً وبعيداً عن قصر الجنية. حيث يقع المعلم الأول في أسفل شارع البحرية والمعلم الثاني يقع في الجهة المقابلة له. لكن رغم هذا البعد أجمالي يبقى كل قطب أو صرح مكماً للآخر ويظهر المجال المخصص للسوق دائماً من خلال المخطط كأنه محاصر من الجهة العليا بالسلطة الحاكمة ومن الجهة السفلى بالمسجد الجامع.

أما المجال الاقتصادي للمركز، فكان يتمثل في:

- ساحة البادستان: التي كانت بمثابة نقطة إلتقاء ووصول كل الشوارع التجارية التي كانت تنطلق إبتداءً من ساحة الجنية.
- القيصرية: وكانت تقع في الجهة المقابلة لإحدى واجهات الجنية على يسار جامع "السيدة"
- السوق الكبير: الذي كان يتوسط الساحة التي كانت تقع ما بين قصر الجنية والجامع الكبير
- دار السكة: كانت تقع في الواجهة اليسرى لقصر الجنية.

- بيت المال :الذي كان بمثابة الإدارة المالية وكان يقع في إحدى زوايا القيصرية.
وكانت تتوسط كل من القيصرية وجامع السيدة المدرسة القرآنية المعروفة بمدرسة
"سيدي عبد الرحمن الثعالبي" المبينة في الصورة التالية.

فرغم وجود عدة ساحات في الحي التجاري، كساحة البازارات وساحة
الفنادق وساحة الخانات...إلا أن القيصرية والبادستان كانتا تشكلان أهم المنشآت
الاقتصادية للمدينة.

أما بالنسبة للمنطقة التي كانت تحد شارع باب عزون والواجهة البحرية
فكانت مخصصة لورشات الصناعة، وترميم الأسطول البحري بالقرب من برج
باب البحار الذي كان يعد من أهم أبراج المدينة، وبهذا كان ميناء مدينة الجزائر
مقسما إلى قسمين، الميناء التجاري والميناء العسكري.

المدرسة القرآنية "سيدي عبد الرحمن الثعالبي"



الخلاصة

نستخلص مما سبق أن مدينة الجزائر عرفت منذ نشأتها ضوابط الهندسة المعمارية وقواعد العمران حيث كانت تسير وفق نظام حضري محكم ومركزية منتظمة، وهذا دليل قاطع على أن المدينة لم تبَن ولم تؤسس هكذا صدفة وبصفة عشوائية وبدون أي خلفية أو تخطيط أو دلالة حضرية. فالمرکز الأول للمدينة كان يجمع بين عدة وظائف منها تجارية وعسكرية وسياسية.. الخ في آن واحد وفي نفس المجال.

فكما هو معروف كان المسجد الجامع في معظم المدن العربية والإسلامية يشكل النواة الأولى لمركز المدينة وكان دائما يحاط بأسواق للتجارة الرفيعة (كتب، عطور، مجوهرات،...). غير أن في حالة مدينة الجزائر كان المسجد الجامع "الجامع الكبير" يطل على الميناء بالقرب من باب الجزيرة أي كان يقع بمعزل عن الأسواق (سوق الغزل، سوق الصيغة والحلي، سوق الرصايفية، سوق الخضار...) والشوارع التجارية (زنقة الصباغين، زنقة الصياغين، ..) وهذا لكون أن هذا المعلم الديني لم يكن يقتصر دوره على الجانب الديني والاجتماعي فقط بل كان يشكل دعامة سياسية أساسية من دعائم الحكم والسلطة.

ولولا عمليات التخريب والتدمير ومحاولات طمس التراث المعماري والعمراني الحضاري للمدينة وتحويل مجالها إلى أطلال على يد الاحتلال الفرنسي منذ سنواته الأولى، لكانت تزال عندنا اليوم "المحروسة" تزخر بأبهى و أجمل المتاحف والمعالم الفنية الجميلة بقصورها وحصونها وقلاعها وبواباتها التي تشهد على حضارة الإنسان وعراقته وعلى الطراز المعماري العربي العثماني الأصيل.

المراجع باللغة العربية

"ميناء الجزائر" مجلة سنوية صادرة عن القيادة العسكرية البحرية سنة 1988
"القصة" الهندسة المعمارية وتعمير المدن. OREF-GAM المتحف الوطني للفنون
الجميلة، ديوان رياض الفتح، 1984.

المراجع باللغة الأجنبية

- Aumerat. J.F: «Propriété urbaine et bureau de bienfaisance musulmane d'Alger . Alger 9000.
- COMEDOR (comité permanent d'étude et de développement d'organisation et d'aménagement de l'agglomération d'Alger «revue d'Aménagement et d'Urbanisme».
- Devoulux. A: «Les édifices religieux à Alger» revue Africaine société historique Algérienne 1861.
- EUDEL. P: «L'orfèvrerie Algérienne et Tunisienne» Jourdan Alger 1902.
- Extrait document Algérien G.G.A série Monographique «Le M'ZAB» N° 16.
- Iver. I: «Alger» Leyde-brill. Klincksiek. 1913 Tome I.
- Roulier.I: «Alger: Analyse de la production architecturale coloniale entre 1870 et 1919» Diplôme de fin d'étude, direction d'étude N.M. LEGER . Ecole d'architecture de Normandie.